

الفصل الثاني

بَيْنَ التَّصْحِيحِ وَالتَّوْضِيحِ

حَوْلَ نَقْدِ كِتَابِ «الله»^١

نظر الأستاذ عباس محمود العقاد في النقد الذي تناولنا فيه كتابه «الله» في العدد الماضي من المقتطف، ومضى يناقش فيه مناقشة العالم الذي يحاول كما ينبغي أن يحاول العلماء الوصول إلى الحق من طريق التساؤل المنطقي الصرف، فسلم معنا بكثير مما خالفناه فيه، وخالفنا في أشياء مضى يعرضها ويوضحها بما عهدناه فيه دائماً من بيان العبارة وجلاء الفكرة. ونحن إذ نحمد للأستاذ هذا النهج، نجدنا أكثر حمداً؛ إذ ينتحي أديب مفكر مثله هذا المنحى، وينزع هذه النزعة، كما نود أن يصبح ضمير الناس أكثر يقظة، فيرى نابهون منهم أن في مجال التأمل الفلسفي شيئاً أو أشياء جديرة بأن تكون موضعاً للاستعماق في الفكر أو الموازنات المنطقية.

والحق أنني أخالف الأستاذ العقاد في كثير مما ذهب إليه في ملاحظاته وردوده، بل أعتقد أنه قد جانب الصواب في كثير منها، فلنأخذ من ثمة في النظر في كل مما عرض له الأستاذ في مقاله.

^١ المقال رد على مقال العقاد الذي عارض به النقد السابق.

(١) الاستحياء

صرف الأستاذ هذا اللفظ ليقابل مصطلح aminism في اللغات الأعجمية، وذهبت إلى أن حقيقتها الفكرة الروحانية، ولا أزال عند رأيي، كما استشهدت على ذلك بتعريف معجمي ثبت.

يقول الأستاذ إن كلمة «أنيميزم»، لها معان كثيرة تختلف باختلاف العلوم التي تدخل فيها، وهي في علم وظائف الأعضاء غيرها فيما وراء الطبيعة وغيرها في علم أصول الإنسان.

ولست أعرف حتى الآن، أن هذا المصطلح قد جرى بأي معنى، في علم الوظائف أو علم وظائف الأعضاء كما يقولون، ولو أن الأستاذ يدلنا على شاهد واحد يؤيد ما ذهب إليه، حمدنا له ذلك حمدًا كثيرًا.

والحق أن هذا اللفظ لا يدخل في استعمال شيء من العلوم البحتة، وإنما هو كثير الدوران في علوم نظرية أو علوم عملية، وهو فيها جميعًا يدل على الروحانية، أو القول بالروح. جاء في المعجم الفلسفي، الذي طبع بإشراف «داجوبرت رونز» Dagobert D. Runes وهو من أحدث المعاجم ما يلي:

Animism: (Lat. Anima: soul). The doctrine of the reality of souls.

(1) Anthropology (a) the view that souls are attached to all things either as their inner principle of spontaneity or activity, or as their dwellers. (b) the doctrine that nature is inhabited by various grades of spirits (spiritism).

(2) Biology, Psychology: the view that the ground of life is immaterial soul rather than the material body.

(3) Metaphysics: the theory that being is animate, living, en-souled.

(4) Cosmology: the view that the world and the astronomical bodies possess souls. See pp. 12-13.

ومن هذا نرى أن المصطلح في علم الإنسان إما أن يدل على اعتقاد في أن الأرواح لها علاقة بالأشياء، وإما على أن الطبيعة مأهولة بطبقات متفرقة من الأرواح، (وهذا ما بحث فيه تايلور)، وهو في علم الأحياء وعلم النفس يدل على القول بأن أساس الحياة روح غير مادي، فضلًا عن الجسم المادي، وفي فلسفة الكون يدل على أن العالم والأجرام السماوية لها أرواح، فهو في جميع مدارجه يدل على الروحانية، وفي جميع استعمالته يدل على الروح أو الفكرة فيها مطبقة على مختلف هذه العلوم.

وكذلك نرى المعنى في معجم بولدوين الفلسفي، وفي المعجم الأنسيكلوبيدي، وفي معجم سنتشوري، وهي من أمهات المظان العلمية والأدبية، فإذا لم نأخذ عنها، فعن أي شيء نأخذ. أما القول بأن هذا المصطلح لا يرجع فيه إلى المعجمات، وإنما يرجع فيه إلى معنى المذهب، الذي يدل عليه كما يقول الأستاذ العقاد؛ فقول لا حقيقة له من جهات عديدة، منها أنه ليس هناك شيء يقال له (معنى المذهب)، فالمذاهب لا تقوم على معانٍ، وإنما تقوم على نظريات أو فكرات، والطريق السليم إلى تبيانها هي المصطلحات المحصورة المعنى المحدودة الدلالة، ومنها أن المصطلحات إذا رجع في فهمها إلى ما ينقل مذهب من المذاهب، إلى فكر كل قارئ أو باحث من غير تقييد بالمعنى المحدود للمصطلحات، أصبح الأمر فوضى، بل أصبح عماء، بل تعذر أن يقوم مذهب عقلي على أساس ثابت؛ ذلك بأن المصطلح المحدود الدلالة هو الأداة الثابتة في تكييف المذاهب، ولم يخرج عن ذلك مذهب واحد من المذاهب على مدار العصور.

من هنا يقول الأستاذ العقاد: إن المعنى المقصود في مذهب تيلور أن الهمجي كان يؤله الأشياء والظواهر الطبيعية (يقصد الظواهر الطبيعية)؛ لأنه كان كالطفل الذي يضرب الباب إذا اصطدم به، لأنه يحسبه في حكم الأحياء (يقصد أنه من ذوات الأرواح التي تبعث الحياة)، ونحن لا نقول (الأستاذ العقاد) إن الطفل يضرب الباب لأنه يؤمن بالفكرة الروحية، وإنما نقول إنه يضرب الباب لأنه يؤمن بالاستحياء، أو لأنه يستحيي الأشياء التي ليست لها حياة.

وفي هذه العبارة ناحيتان: الأولى رأي الأستاذ (تيلور)، والثانية وجهة نظر الأستاذ العقاد؛ فرأي تيلور على أن الهمجي يضرب الباب لأنه يحسبه حيًّا، أي أن فيه روحًا، وتلك هي الروحانية بعينها، أما رأي الأستاذ العقاد فلا يقول بأن الطفل (ويقصد الهمجي الذي هو كالطفل بحسب منطوق العبارة الأولى) يضرب الباب لأنه يؤمن بالفكرة الروحانية، بل يضربه لأنه يؤمن بالاستحياء، أي أنه يستحيي الأشياء التي ليست لها حياة، وإذن يكون رأي تيلور هو في نطاق الأنيميزم حقًا، أي في نطاق الفكرة الروحانية، أما رأي الأستاذ العقاد فخارج عن ذلك النطاق، ولا يدخل في باب الأنيميزم، وبذلك يصبح إطلاق معنى الأنيميزم عليه خرق لنطاق المعنى المحدود لنظام المصطلح في العلوم النظرية. وللأستاذ العقاد رأيه، ولكنه ليس حرًّا في أن يقول إن الأنيميزم دال عليه. وإذن فليبحث له عن مصطلح جديد يضعه له، وقد تكون أقرب كلمة للتعبير عنه في الإنجليزية هي: *Ensouling*.

ولا خفاء أن مذهب تيلور، وهو مذهب معروف منذ زمان طويل، يختلف عن المعنى الذي أراده الأستاذ العقاد، اختلافًا بيّنًا؛ فالهمجي على مذهب تيلور يعتقد بأن للأشياء أرواحًا تسخرها، لا أنه يستحييها كما يريد الأستاذ العقاد أن يقول. ومن ناحية اللغة نعرف أن الألف والسين والتاء تفيد إضافتها إما الطلب وإما الصيرورة، وكل من المعنيين بعيد عما يعنى بالروحانية: Animism؛ فإن الهمجي وفقًا لهذا المذهب لا يطلب من الأشياء أن تصبح حية، ولا هو ينتظر أن تصير حية، وإنما هو يعتقد أن أرواحًا تلابسها فتسخرها لمشيئتها، فإذا انتقم منها أو صب عليها غضبه، فإنما يفعل ذلك، وهذا المعنى قائم في مخيلته، ولكنه لا يستحييها: أي أنه لا يطلب منها أن تحيا، ولا ينتظر أن تصير حية.

(٢) تعديد الآلهة

سلم الأستاذ العقاد معنا بأن لفظة Polytheism ترجمتها الشرك، ثم عقب على ذلك بقوله:

ولكنك لا تقول إن القبائل الهمجية كانت تؤمن بالشرك؛ لأن الإيمان بالشرك يقتضي الإيمان قبل ذلك بوحدانية الله، ولا معنى لأن نصف إنسانًا بأنه مشرك قبل أن يظهر على الكرة الأرضية دين يدعو إلى التوحيد، أو يدعو إلى الإله الواحد الذي يدعو إلى غيره أولئك المشركون.

وفي هذه العبارة جهات من النقد:

أولاً: إن القول بأن الشرك حالة لا توصف بأنها كذلك قبل ظهور دين يقول بالتوحيد، أمرٌ ينطوي على مغالطة صريحة، فإذا فرضنا أن دين التوحيد لم يظهر في هذا الوجود، ولا عرف الناس في هذه الكرة شيئًا يقال له (وحدانية الله)؛ أيمنع ذلك لغة أن نسمي الحالة الأولى حالة شرك أو إشراك، وهل نحتاج إلى تحديد معنى «التوحيد» «والوحدانية»، ليكون صرفنا كلمة شرك على حالة تكثير الآلهة أمرًا مستقيمًا مع منطوق اللغة؟

ثانيًا: لم يكن هناك دين يقال له الشرك أو الإشراك، وإنما كانت هناك أديان كثيرة لكل دين، منها آلهته وطقوسه وعباداته ومقدساته ومحرماته (أي طواطمته وطاباته)، وإنما يجمع هذه الأديان جميعًا، حالة واحدة تشملها، هي حالة الشرك أو الإشراك،

بَيِّنِ التَّصْحِيحَ وَالتَّوْضِيحَ

وعلى هذا ينتفي أيضاً القول بأن هناك إيماناً يقال له (إيمان الشرك)، وإنما الإيمان يكون بدين، حالته المكيفة له هي الشرك، كما نقول: إن الإسلام دين حالته المكيفة له هي التوحيد.

ثالثاً: إن ظهور أديان تقول بالتوحيد أمر لم ينقص من حالة الشرك ولم يزد عليها شيئاً، وكل ما في الأمر، أن «التوحيد» جعل معنى «الشرك» أكثر تحديداً لا غير.

رابعاً: يقول الأستاذ العقاد:

فلو قال لنا مؤرخ أن الهمج أشركوا قبل أن يؤرخ لنا ديانات التوحيد، لكان كلامه هذا خطأ في التاريخ، وخطأ في التعبير.

ولست أرى في القول بأن الهمج أشركوا، بمعنى أنهم نشأوا ومضوا مشركين، أي خطأ لا في التاريخ ولا في التعبير؛ ذلك بأنهم أشركوا بالفعل، بمعنى أنهم أشركوا مع إله كبير، آلهة صغيرة أو أنهم جعلوا لكل ظاهرة أو حالة إلهاً، أو بمعنى أنهم أشركوا آلهة كثيرة في تدبير الطبيعة والحياة. أما القول بأن إنساناً كان موحداً ثم أشرك، أو جماعة كانت موحدة ثم أشركت، فذلك معنى آخر بالمرّة، بعيد عن المعنى الأول، بعد الأرض عن السماء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مَؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾، يقتضي وجهين:

الأول: أن تكون موحدة ثم أشركت.

والثاني: أن تكون مشركة لم تعرف التوحيد ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

(٣) أسماء وحروف يونانية ولاطينية

يحتاج الكلام في هذه المسألة الرجوع بعض الشيء إلى مسألة تاريخية: ففي دور الانعقاد الرابع ألف مجمع فؤاد الأول للغة العربية، لجنة من بعض حضرات أعضائه، لتنظر في شأن كتابة الأعلام اليونانية واللاطينية بحروف عربية، وقد اشتركت في هذه اللجنة موظفاً، فأعدت لها البحوث واتخذت على ضوءها القرارات بعد أن بحثت اللجنة ذلك الأمر بحثاً دقيقاً مستفيضاً، وانتهت عند قرارات تسهل على المعربين تعريب تلك الأعلام، بما يقرب جرسها في اللغة العربية، من نطقها في تينكما اللغتين.

أما الذي حفز المجمع على أن يفكر في ذلك أن كل مترجم من اللغات الأوروبية يرسم الأعلام في العربية منطوقة بحسب اللغة التي يترجم منها، فالمترجم من الإنجليزية ينقل الأعلام كما ينطق بها الإنجليز، والمترجم من الفرنسية ينقلها كما ينطق بها الفرنسيون، وهكذا في حين أن الواجب أن يوحد النطق بهذه الأعلام، فترسم في العربية، رسمًا يقرب جرسها من النطق بها في لغتها الأصلية.

ولقد قرأت في كتاب مطالعة للمدارس الثانوية أقرته وزارة معارفنا الموقرة ويحمل غلافه أسماء خمسة من أعلام أدبائنا، مقالاً رسم فيه اسم قائد يوناني بأربعة رسوم مختلفة، وكفى بذلك بلبله لطالب ثانوي، لم يشب بعد عن الطوق. لهذا شرعت في وضع معجم في الأعلام القديمة، استهديت في وضعه بالقواعد التي أقرها المجمع، وزدت إليها قواعد أخرى، وربما شرعت في طبعه قريباً؛ فإن العربية في حاجة قصوى إليه. فإذا كنت قد نبهت إلى هنات درج عليها صديقي الأستاذ العقاد، فذلك سببها، وهذا منشؤها.

ولقد نسي الأستاذ أنه استعمل في كتابه لفظين يرسم أحدهما في الأعجمية الحديثة، Kronos، والثاني Chronos. قال في ملاحظاته، أو كقولنا كرونوس بدلاً من أخرونوس. وإذا رجعت إلى صلب كتابه رأيت الأمر على عكس ذلك جاء في ص ١٣١ من الكتاب: «فلما قال الأقدمون إن أورانوس إله السماء خص ابنه كرونوس إله زحل كانوا يفهمون من ذلك أن كوكب زحل هو مناط النظام في السيارات، وأنه قادر بذلك على تقسيم دورات الفلك، وتقسيم الفصول والسنين، ومن هنا التشابه بين كلمة Kronos كرونوس إله زحل وكلمة كرونوس Chronos أي إله الزمان، كأنهم يقولون إن الزمن قد حد من حركات الأفلاك والسيارات.»

والحقيقة أن اللفظ الأول يجب أن يعرب «أقرونوس» والثاني «أخرونوس»، فذلك يبدأ في اليونانية بحرف «كبا» وهذا يبدأ بحرف «خي».

وإذا رجعت إلى معجم لاطيني في الأعلام القديمة لما عثرت فيه على أسماء تبدأ بحرف K الحديث؛ لأنه لم يعرف في تلك اللغة، وإنما عرف حرف C وكان ينطق «كافا»، فرسم كرونوس عند المتثبتين هو Cronos في اللاطينية (Kronos في اليونانية). كذلك لم أقف في ما بين يدي من المراجع على إله اسمه «أخرونوس» هو إله الزمان، وإنما في اللغة اليونانية أصل هو: Chronos ومعناه «زمن» دخل في تركيب كثير من الألفاظ المستحدثة، مثل Chronometer و Chronology وغير ذلك، فلو هदानا الأستاذ إلى الأصل الذي أخذ منه هذا القول، شكرنا له ذلك كل الشكر.

أما أن يأخذ عليَّ الأستاذُ أني رسمت اسم (أوغست كونت) بالغين لا بالجيم، فغالب ظني أن رسمي هو الصحيح، وإن لم يكن في الفرنسية حرف (الغين)، فمن قبل قال جميع الكتاب أوغستوس قيصر وشهر أوغسطس والقديس أوغسطين، ولا أتذكر أني رأيت كاتبًا عربيًّا رسمه أوغسطين إلا لماً وعلى خطأ.

(٤) الثنائية والجدلية

يقول الأستاذ العقاد:

ويعيب الأستاذ مظهر ترجمة الديالكتيك Dialectic بالثنائية، ويفضل ترجمتها بالجدلية، وهو في ذلك على خطأ عظيم من جهة اللفظ، ومن جهة المعنى؛ لأننا رددنا «ديا Dia» إلى معناها الأصيل وهو الثنائية، ومنها الآن كلمة *deux* بالفرنسية و*two* بالإنجليزية.

أقول ولست مخطئاً لا من جهة اللفظ، ولا من جهة المعنى، وأن الخطأ كل الخطأ هو في ما يقول به الأستاذ العقاد؛ فإن في اليونانية أصلين أحدهما: *dia* والآخر *duo*، والأصل الثاني هو الذي أخذ منه *deux* الفرنسية و*two* الإنجليزية، وليس لهذين اللفظين أية علاقة بالأصل الأول *dia* الذي دخل في تركيب *dialect*. إن لفظ *dia* معناه في العربية (بين)، أما لفظ *duo* فمعناه (اثنان)، وهذا لم يدخل في تركيب *dialect* بل ولا تمت إليه بأية صلة، وإليك الشواهد القاطعة:

- Two: Century Dictionary, p. 6558. vol. VI..

Lat: duo: old French: doui, dus, deus, deux; new French: deux
Greek: duo.

ومن هذا الأصل *duo* أخذ لفظ *dual*، أي ثنوي أو ثنائي وإليك الشاهد:

- Dual: Century Dictionary, p. 1780. vol. II..

L. dualis; Greek: duikos: duo: two.

أما لفظ دياكت dialect فيدخله الأصل dia ومعناه «بين»، وهو الذي يخيل للأستاذ العقاد أن معناه (اثنان)، حيث تشابه عليه الأصلان dia و duo، وإليك الشاهد:

- Dialect: Century Dictionary, P. 1590. vol. II..

L. dialectos. dialectus: Greek; dialegein: distinguish. Choose, between: from Greek: dia: between: legein: choose, speak.

Greek: dialectos: discourse. Discuss, argue, use a dialect or language.

إذن فلفظ (ديالكت) dialect لا يدخله أصل يوناني أو لاطيني فيه معنى «الاثنين»، ولا (الثنوية)، ولا (الثنائية)، بل يدخله أصل فيه معنى (البينية)، فلفظ (ديالكت) مركب من الهجاء ديا (dia) ومعناه (بين)، والحرف ليجين legein ومعناه يختار أو يتحدث وتخريجه «التخير أو التحدث»، فأين معنى الثنائية في ذلك؟ وإذن يكون تعليل الأستاذ العقاد من الجهة اللغوية لا أصل له، ولا يستند إلى أي أصل أعجمي على إطلاق القول، ولم يبق إلا التخريج الفلسفي، الذي يقول فيه الأستاذ العقاد ما يلي:

ولأن مذهب كارل ماركس وهو «الديالكتك» يقوم على أن المادة ثنائية الخصائص، تشتمل على الخاصة ونقيضها، ولا يقوم على أن المادة جدلية أو يجادل بعضها بعضًا في أطوارها المتتابعة.

ونقول بأن الذهاب إلى أن مذهب كارل ماركس هو «الديالكتك» أمر لم يقل به غير الأستاذ العقاد، على ما أذكر، وبقدر ما يتسع له علمي، على أنني أكاد أجزم به، ذلك بأن مذهب ماركس هو «المادية الجدلية»، «ديالكتيك متيرالزم» وشتان ما بين المذهبين.

بدأ مذهب الجدل أو المذهب الجدلي، بأرسطو طاليس وقد فرق بين التعقل الجدلي Dialectical Reasoning الذي ينشأ بالقياس المنطقي من آراء مسلم بها عمومًا، والتعقل الإثباتي Demonstrativ Reasoning الذي يبدأ بمقدمات أولية صحيحة، ولم يدع أرسطو طاليس أنه أول قائل بالمذهب، بل رده إلى زينون الإليايوي. وإن كان الواقع أن مذهب الجدل بطريق المحاورة، قد نشأ مع سقراط وتلميذه أفلاطون، ثم تميز في فلسفة «كانت» ومن بعد «كانت» في فلسفة (هيجل)، ومن (هيجل) أخذ ماركس وانجلز، ومعنى أخذًا أنهما استندا إلى جدليات (هيجل) في وضع مذهب مادي طبقاه على التاريخ باعتباره من خلق العوامل الاقتصادية. ويطول بنا البحث إذ نحن أردنا أن نبين وجه

العلاقة بين هيجل وماركس، فنكتفي بأن نبين المعنى الحقيقي، الذي تنطوي عليه «المادية الجدلية» وهي مذهب ماركس؛ ذلك بأنك إذا قلت الجدلية وحسب، أخرجت من ذلك المجال ماركس ومذهبه.

يتألف مذهب ماركس من شقين؛ الأول «المادية»، والثاني «الجدلية»، ومن تضايفهما نخرج باسم المذهب كاملاً: فما المقصود بالمعنى من الشقين؟ يقصد ماركس «بالمادية» من ناحية وجودية صرفة أن المادة والطبيعة والدنيا المنظورة، هي في مجموعها حقيقة واقعة قائمة بذاتها، ولا تستمد حقيقتها من أي قوة كانت، سواء أكانت هذه القوة فوقطبيعية أم استشرافية، كما لا يتوقف وجودها على عقل الإنسان. وإنه من المسلم علمياً، أن المادة وجدت قبل نشوء العقل البشري، سواء أمن ناحية الزمان أم من ناحية المنطق، بمعنى أن العقل لم يظهر إلا بحكم تطور مادي، وأن المادة ينبغي أن تفسر بمقتضى ذلك، وأن المكان والزمان يجب أن ينظر فيهما باعتبارهما صورتين تتوقفان على وجود المادة.

ويقصد بالجدلية التعبير عن تواصل الأشياء تواصلًا حركيًا وشمولية التغير بما تتصف به هذه الشمولية، من مظاهر التطرف والغلو، ذلك بأن كل شيء (على ما يرى ماركس) فيه وجه من الواقع الحقيقي، إنما يقع تحت سلطات منظومة من التكيف الذاتي، بحكم أن جملته، أو نيته إنما تتألف من عوامل أو قوى متعارضة، ومن شأن حركتها الداخلية أن تواصل بين الأشياء وعلى هذا ينبغي أن يرفض مذهب الآلية، إذا هو لم يفسر في حدود المادية الجدلية، كما ينبغي أن ترفض جميع الفوقطبيعية المستمدة من «الوجودية المثالية».

وإذن فليس في معنى الجدلية، فلسفيًا أو مذهبيًا «أن المادة جدلية أو يحاول بعضها أن يجادل بعضًا، في أطوارها المتتابعة» على حد تصوير الأستاذ العقاد، الذي لم يقصد به إلا أن يغرس في ذهن القارئ مفارقة تخدش تفكيره، وهناك فرق كبير بين المادة والمادية.

ليس في ذلك من ثنائية، ولا من ثنوية، والمذهب كله لا يحتمل معنى التضعيف، بمعنى واحد ثم اثنين، لا يحتمل ذلك لا من ناحية اللغة ولا من ناحية الوضع، وليس فيه شيء من ثنائية المادة كما يقول، بل فيه معنى التعارض بين العوامل أو القوى، وما معنى ثنائية المادة؟ معناه المدرك بديئة أن المادة تتركب من شيئين أو من قوتين اثنتين، كقولك: الإنسان «جسم وروح»؛ فهذه ثنائية، وكقولك: الوجود «مادة وعقل»؛ فهذه ثنائية.

أما القول بأن المادة ثنائية الخصائص لأنها تشتمل على الخاصة ونقيضها على حد قول الأستاذ، فلا يدل على أن المادة ثنائية، وإنما يدل على أن «الخصائص» هي التي تتصف بالثنائية؛ وفرق بين القول بالثنائية منسوبة للمادة وبين الثنائية منسوبة إلى «الخصائص».

وماركس أبعد الناس عن ذلك القول بوجهيه؛ لأنه لم يستند إلى شيء منه في مذهبه جميعاً وعلى الإطلاق. ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

(٥) الوجود والعدم والموجود والمعدوم

قال الأستاذ العقاد:

وقال الأستاذ مظهر عن كلمة الوجود ينتقد قولنا: «إننا نعطي الوجود ألزم لوازمه، إذا قلنا أنه غير المعدوم» فعقب على ذلك قائلاً: «ذلك قول غير مستقيم ذهنياً؛ لأن الوجود يقابله العدم ولا يقابله المعدوم». نقول: نعم ... ولكننا إذا قلنا الشيبية، قصدنا بذلك الشبان، وإذا قلنا العلم قصدنا بذلك المعلومات، وإذا قلنا الوجود قصدنا بذلك هذه الموجودات.

ونقول بأن ذلك قد يقبل في لغة غير لغة العلم، وفي غير لغة الفلسفة؛ لأن هذه اللغة لا تتجاوز في تحديد المعاني الدقيقة لكل لفظ.

على أننا لا نقبل هذا المذهب التعبيري في لغة الأدب العام، إلا بتجاوز، فكيف بنا نقبله في لغة الفلسفة؟ إلا أن نكون إلى جانب التعسف أدنى، بل لا نبالغ إذا قلنا إننا نكون إلى الخطأ الصرف أقرب شيء.

أضف إلى ذلك أن مقابلة الوجود بالمعدوم خطأ؛ لأن الوجود من الكليات والمعدوم من الجزئيات، فكيف يصح مقابلة الكلي بالجزئي، في بحث فلسفي أساسه التفريق بين أدق المعاني؟!

ناقش الأستاذ بعد ذلك في مسألتين: تتعلق أولاهما بمذهب «كونت»، وثانيتها بمذهب التطور، وقد يطول بنا الكلام إذا أردنا أن نظهر أن الأستاذ لم يفرق تفريقاً تاماً بين مذهب «كونت» في الإرادات والأسباب، وفيما سماه «كونت» (دين الإنسانية)، والأمران على ما بينهما من صلة تركيبية في مذهبه، لا يحتمل اتصالهما المعنى الذي خرج به الأستاذ العقاد.

بَيِّنِ التَّصْحِيحَ وَالتَّوْضِيحَ

أما كلامه في مذهب التطور، فظاهر من عباراته التي ساقها أنه لم يفرق بين البحث في التطور والبحث في نشوء الحياة؛ إن الأمرين مختلفان جد الاختلاف.
أما قول الأستاذ:

إن أجهل همجي، لهو أصدق شعورًا بالعالم من الفيلسوف العصري الذي يحصر مسألة الحياة في هذا العصر العجيب؛ لأنه على الأقل يدرك للكون عظمة ورهبة تخفيان على الفيلسوف الذي يظن أن الآزال والآباد كانت في انتظاره، حتى يظهر في سنة ١٨٠ أو ١٦٠٠ أو ٢٠٠٠ فيضع الكون كله في تلك العلبة الصغيرة، ويغلقه هناك بالفتاح الأخير.

فقول فيه مجال للنظر.

فهل نصدق حقيقة أن أجهل همجي هو أصدق شعورًا بالعالم من لابلان، وكونت، وكانت، وداروين، وبرجسون؟ ... أما الفيلسوف الذي يستطيع أن يضع العالم في علبة، ويغلقها بمفتاح، فإنسان له عقل يزن ويرجح ويحكم ويقيس، فأين منه ذلك الهمجي الذي يعجز لجهله وقصوره، أن يحصر عدد أصابعه في اليد الواحدة؟! وللوقوف بين الماء والرمال لنشاهد الواقع، ونصدق الحسَّ، ونرضي العقل، خير في هذه الحياة من التخليق بأجنحة من الوهم جُل ما فيها من الحقيقة أن لا حقيقة لها.